وضع التصورات الكفيلة للارتقاء بمناهج اللغة العربية وآدابها

د. ضو محمد حامد بوني
كلية الآداب – جامعة الفاتح

تمثل اللغة العربية إحدى اللغات التي كان لها أثر كبير في تطوير الحضارة الإنسانية، فهي التي ربطت عرى الاتصال بين القديم والحديث، وأصبح لها شأن يلاحظه القاصي والداني بعد مجيء الإسلام، فكانت معجزة محمد بن عبد الله –صلى الله عليه وسلم– تتمثل في القرآن الكريم، ذلكم الكتاب الذي تحدى العرب جميعاً –وهم أرباب الفصاحة والبيان– بل إنه تحدى الإنس والجن جميعاً، بلسان عربي مبين.

ذلك أن اللغة العربية قبل مجيء الإسلام لم يكن لها شأن يذكر كحال المتحدثين بها، فاللغة – دائماً – انعكاس لحياة أصحابها تنمو بنموهم، وتذبل بذبولهم، واللغة مظهر من مظاهر عقل الأمة، لأنها لا تخلق دفعة واحدة، ولم يأخذها الخلف عن السلف كاملة، وإنما يخلق الناس في أول أمرهم ألفاظاً على قدر حاجتهم، فإذا ابتكروا أشياء، واكتشفوا أخرى اضطروا إلى وضع ألفاظ جديدة لها، وكذلك الاشتقاقات والتعبيرات تنمو وترتقي تبعاً لرقي الأمة.

ومن هنا فإننا إذا حصرنا معجم اللغة الذي تستعمله الأمة في عصر من العصور، أمكننا أن نعرف الأشياء المادية التي كانت تعرفها والتي لا تعرفها والكلمات المعنوية التي تعرفها والتي لا تعرفها.

وإذا لم تكن للعرب قبل الإسلام ثقافة ولا فلسفة ولا حضارة، فإننا لا نعجب إذا لم نجد عندهم مثل هذه الألفاظ لأنهم لم ينتبهوا إلى تلك المعاني حتى يضعوا بإزائها ألفاظاً تدل عليها.

ولكن الحال تغير بعد مجيء الإسلام حيث صار لهذه اللغة مكانة سامية بين اللغات المختلفة، وذلك راجع إلى جملة أسباب أهمها:

1- أن اللغة العربية لغة دين قائم على أصل خالد هو القرآن الكريم، وقد أجمع الأولون والآخرون على إعجازه بفصاحته –إلا شرذمة قليلة من الجهلة المتزندقين– ومن هنا فإن فصاحة القرآن يجب أن تكون مفهومة، ولا يكون ذلك إلا بالمران والمدارسة لأساليب الفصحى، بإحكام اللغة، والبصر في حقائقها، وفنون بلاغتها، والحرص على سلامة الذوق بها، وكل هذا يجعل الترخص في هذه اللغة وأساليبها ضرباً من الفساد لهذه اللغة[1].

2- صحة العبادة يتوقف على آدائها بالعربية، فالأعجمي يسلم ويتعرب وإذا لم يسلم تضطره الظروف إلى تعلم لغة الدولة القائمة، حتى يقترب من عواطف العرب الفاتحين.

3- ظهرت العربية كاملة بالقرآن، وكان سرعة انتشارها يتناسب مع سرعة فتوح أهلها، وهل أشد شكيمة من أمة اجتمع لها الغرام بالدين والغرام بالدنيا، يخافها ويحترمها صديقها وعدوها، وما عهد في أدوار اللغة العربية أيام قوة الدولة الإسلامية وضعفها، بل أيام الأعاجم الذين استولوا على الحكم، أن صدرت عنهم عهود وعقود بغير العربية، تترا كانوا أم فرسا أم شركسا أو كردا أو بربرا. بل إنهم كانوا يضطرون الدول المجاورة لهم إلى أن يتخذوا لهم منشئين حاذقين بالعربية، ليجيبوا الدولة الإسلامية على المكاتبات الرسمية بلغة العرب، ولم يشبه العربية في هذا الشأن إلا اللغة اللاتينية في الغرب قديماً، واللغة الإنجليزية في العصر الحاضر فقد أصبحت هذه اللغة كالعربية في فترة ازدهارها لغة السياسة والتجارة والعلم والثقافة، وكتب الشرف للعربية أن كانت لغة دولية عامة في المعاملات قرابة ألف سنة.[2]

4- مع مطلع القرن الثامن الميلادي أصبحت العربية لغة العلم عند الخواص في العالم المتمدن، وصارت حاملة علم التقدم الصحيح،

[1]. أنور الجندي، صفحات مضيئة من تراث الإسلام. دار أبو سلامة للطباعة والنشر والتوزيع- تونس ص59، بتصرف.

[2]. انظر: محمد كرد علي، الإسلام والحضارة العربية. ط3، 1968. لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة 181/1.

واستمر هذا الزخم حتى مطلع القرن الخامس عشر على أقل تقدير، وبعد ذلك أخذ التمدن الإسلامي، واللغة العربية يفقدان منزلتهما تدريجياً، وقد نقلت في القرن الثاني عشر والقرن الذي بعده أكثر التآليف العربية إلى اللغتين اللاتينية والعبرانية، وأصبح كل من يريد أن يطلع على آراء عصره –في تلك الحقبة– مضطرا إلى أن يتعلم العربية، وكذلك اتهم المجددون في النهضة الأوروبية أمثال "روجر بيكون 1294" بالإسلام، لأنهم كانوا يعرفون العربية.[1]

5- تفوقت العربية بعد الإسلام على اللغة الفارسية والسريانية في العراق وفارس، والرومية والسريانية في الشام، والقبطية في مصر، واللاتينية في شمال أفريقيا، ولم يمض سبعون سنة حتى أصبحت العربية اللغة العامة في هذه الأقطار، وقد علل ابن خلدون هذه الظاهرة بقوله "لما هجر الدين اللغات الأعجمية، وكان لسان القائمين بالدولة الإسلامية عربياً هجرت كلها في جميع ممالكها، لأن الناس تبع للسلطان وعلى دينه، فصار استعمال اللسان العربي من شعائر الإسلام وطاعة العرب، وهجر الأمم لغاتهم وألسنتهم في جميع الأمصار والممالك، وصار اللسان العربي لسانهم حتى رسخ ذلك لغة في جميع أمصارهم، وصارت الألسنة الأعجمية دخيلة فيها وغريبة".[2]

وربما كان من أجمل السياسة في التعريب أن فتح العرب للمجوس واليهود والصابئة، والنصارى وغيرهم، باب الخدمة في الدولة، فما أبى العرب استعمال القبطي والفارسي والرومي والأسباني والبرتغالي والإيطالي ... فاتخذت مصلحة الموافق والمخالف تحت علم الحرية والعربية، وأخلص أهل الذمة القصد للمسلمين، فعاشوا في ظل دولتهم الجديدة مغتبطين، وتعاون الكافة، وكانت هذه المدنية .ثم إن اللسان العربي على سعته وسلاسته لم يقف ولم يجمد، نقل ألفاظاً من الفارسية والرومانية والسريانية ... وترك ألفاظاً عربية كانت مألوفة له في عصر الجاهلية، واصطلح على كلمات عربية كانت تؤدي معاني أخرى قبل الإسلام، وسعى العرب منذ كانت البلاد في طاعتهم، أن يجعلوا العربية لغة علم كما هي لغة دين وأدب وسياسة.

---

[1] . المرجع السابق 178/1 وما بعدها.
[2] . ابن خلدون، المقدمة، دار ابن خلدون الإسكندرية، ص166.

ولم يحارب العرب لغات البلاد الأصلية، بل ساروا في نشر لغتهم بتعقل، وراعى دعاتهم سنن الطبيعة والنشوء، وعملت قاعدة الانتخاب الطبيعي عملها في اللغة كما عملت في العناصر، فبقى ما هو مفيد للناس في مصالحهم على اختلاف نحلهم ومللهم.[1]

كانت اللغة الفصحى واسطة التفاهم بين عامة الشعوب الإسلامية في القارات الثلاث (آسيا وأفريقيا وأوروبا) منذ قيام دولة الراشدين إلى اليوم، وهيهات أن يكون حظها حظ اللغة اللاتينية بين أكثر الأمم الغربية، فإن العربية رسخت قواعدها لمكان الدين منها، ثم لجعلها لغة مدنية راقية، ومن قارن بين حالتها اليوم وحالتها منذ ما يزيد على القرن، وما أصابها من رقي بإدخال المدنية الجديدة على أهلها، لا يلبث أن يعرف أن العربية وسع صدرها لقبول جميع الأفكار الجديدة قديما وحديثاً.

وقولهم: إن لغة العرب لا تتسع للمصطلحات الفنية هو من الدعاوي الساقطة بالبداهة، ولا أدل على ذلك ما يصدر من المؤلفات العلمية بالعربية في مصر والشام والعراق، وغيرها من البلاد العربية، وما عاق هذه اللغة كون لغة التخاطب في أكثر البلاد العربية، غير لغة التكاتب، لأن شروط البقاء فيها متوفرة بوفرة مادتها العلمية الأصيلة. وما أضر بالعربية إلا انتشار الأمية زمناً طويلاً بين أهلها. الأمر الذي أدى إلى تخلف الأمة حتى صارت تابعة بعد أن كانت حاملة لواء التقدم والرقي الحضاري في العالم؛ يوم أن كانت دولتهم هي التي تملى على الأمم إرادتها، ولا تملي عليهم إرادة دولة، وما اتجهت قط هممهم إلى قطر إلا فتحوه وأخضعوه ومدنوه.

لقد اعتقد المسلمون على مدى القرون الماضية، أن لغتهم جزء من حقيقة الإسلام، لأنها كانت ترجماناً لوحي الله، ولغة لكتابه، ومعجزة لرسوله، ولساناً لدعوته، ثم هذبها الدين بانتشاره، وخلدها القرآن الكريم بخلوده، فالقرآن لا يُسمى قرآناً إلا بها، والصلاة لا تكون صلاة إلا بها ولقد حماها ارتباطها بالقرآن من أن تتحول لهجاتها إلى لغات مستقلة، وحال بينها وبين أن يقرأ تراثها بقاموس، كما يقرأ تراث اللغات الأوروبية، وسيظل الترابط بين المسلمين وبين لغة الضاد قائماً مادام القرآن الكريم، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

---

[1] . انظر: الإسلام والحضارة العربية، 180/1. مرجع سابق.

إن اللغات الأوروبية حين انسحبت من اللغة اللاتينية، إلى اللهجات القومية، قد انقطعت عن تراثها القديم، وأصبح من شأن هذه اللغة أن تتطور، وهي في كل فترة تنتقل من لغة مكتوبة إلى لغة الكلام التي تصبح بدورها لغة كتابة، ومن ثم فإن أوروبا لا تستطيع أن تقرأ شكسبير، أو ملتون أو غيرهما من الأدباء إلا بواسطة القاموس، في الوقت الذي لم يتجاوز فيه انفصال اللغة الإنجليزية والفرنسية والألمانية الأربعة قرون، بينما يقرأ العرب والمسلمون اليوم "امرؤ القيس" وبينهم وبينه أكثر من ألف وخمسمائة عام، كأنما ألقى شعره اليوم.[1]

ولا ريب أن محاولة فصل اللغة العربية الفصحى عن لغة الكلام بإعلاء شأن اللهجات، أو بخلق ما يسمونه لغة وسطى، أو لغة الصحافة، كل هذا له خطره وأبعاده.

إن النظرة السطحية قد ترى في ذلك شيئاً مقبولا، ولكن النظرة العميقة تكشف عن محاذير جد خطيرة أبرزها: الانفصال عن مستوى البيان القرآني، ذلك أنه من الضروري أن تظل اللغة العربية متصلة ببيان القرآن، ومرتبطة به، فإذا بعدت عنه صار من الضروري -طال الزمن أو قصر- أن تنقطع الصلة بين البيان والأداء العربي، وبين القرآن الكريم.

واللغة العربية لغة غنية عملاقة، استطاعت أن تزيح كل لغات الأمم والشعوب التي وصل إليها الفتح الإسلامي كالسريانية والكلدانية والآرامية واليونانية ... عن مكانها في مصر والشام وأفريقيا، وحلت محلها قبل أن ينقضي قرن واحد، فلما بلغت القرن الثالث تحولت الصلوات في الكنائس إليها، ثم كتبت بها اللغات التركية والفارسية والأردية والأفغانية والكردية والمغولية والسودادنية والسواحيلية ... كما كتبت بها لغة أهل الملايو وكان هذا قبل أكثر من أحد عشر قرنا من الزمان.

ثم دخلت اللغات الأوروبية كالفرنسية والألمانية والإنجليزية التي بلغ عدد الكلمات العربية بها وحدها أكثر من ألف لفظ عربي. ومن الناحية العلمية فهي تفوق أضخم اللغات ثروة وأصواتاً ومقاطع، إذ بها 28 حرفاً غير مكررة، بينما في اللغة الإنجليزية 26 حرفاً ومنها مكرر.

[1] أنظر: صفحات مضيئة من تراث الإسلام، ص60-61، مرجع سابق.

وقد عجب "رينان" من كمال اللغة العربية، وسعة انتشارها فقال: من أغرب ما وقع في تاريخ البشر، وصعب حل سره، انتشار اللغة العربية. فقد كانت لغة غير معروفة بادئ ذي بدء، فبدت فجأة على غاية الكمال، سلسة أي سلاسة، غنية أي غنى، كاملة بحيث لم يدخل عليها منذ ذلك العهد إلى يومنا هذا أدنى تعديل مهم، فليس لها طفولة ولا شيخوخة، ظهرت لأول أمرها تامة مستحكمة، ولا أدري هل وقع مثل ذلك للغة من لغات الأرض، قبل أن تدخل في أطوار أو أدوار مختلفة؟!

وأجاب بقوله: ما عهدت قط فتوحاً أعظم من الفتوح العربية، ولا أشد سرعة منها، فإن العربية ولا جدال قد عمت أجزاء كبرى من العالم ، ولم ينازعها الشرف في كونها لغة عامة، أو لسان فكر ديني أو سياسي، أسمى من اختلاف العناصر إلا لغتان اللاتينية واليونانية، وأين مجال هاتين اللغتين في السعة، من الأقطار التي عم انتشار اللغة العربية فيها؟[1]

ولقد واجهت العربية حملة شعواء تهدف إلى القضاء عليها، والغريب أن الذين شجعوا العرب على الاعتزاز بقوميتهم، هم الذين سعوا بعد ذلك إلى هدم أساس هذه القومية وهو اللغة.

بدأت هذه الدعوة في أواخر سنة 1881– حين اقترحت صحيفة "المقتطف" (وهي صحيفة موالية للاستعمار البريطاني في مصر) كتابة العلوم باللغة التي يتكلمها الناس في حياتهم العامة، ودعي رجال الفكر إلى بحث هذا الاقتراح ومناقشته. ثم أثيرت القضية مرة أخرى، وكانت هذه المرة على يد القاضي الإنجليزي "ولمور" فقد ألف في سنة 1902م كتاباً سماه "لغة القاهرة" وضع لها فيه قواعد، واقترح اتخاذها لغة للعلم والأدب، كما اقترح كتابتها بالحروف اللاتينية.

وتنبه الناس لخطورة الكتاب، فحملت عليه الصحف، مشيرة إلى موضع الخطر من هذه الدعوة التي لا تقصد إلا إلى محاربة الإسلام في لغته.

[1] أرنست رنيان، تاريخ اللغات السامية، نقلاً عن كتاب الإسلام والحضارة العربية. 180/1، 181. مرجع سابق.

وكتب حافظ إبراهيم قصيدته المشهورة التي جاء فيها:

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي ... وناديت قومي فاحتسبت حياتي
رموني بعقم في الشباب، وليتني ... عقمت فلم أجزع لقول عـداتي
ولدت ولما لم أجد لعرائسـي ... رجالاً وأكفاء وأدت بناتـي
وسعت كتـاب الله لفظاً وغاية ... وماضقت عن آي به وعظـات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة ... وتنسيق أسماء لمخترعـات
أنا البحر في أحشائه الدر كامن ... فهل سألوا الغواص عن صدفاتي؟

وثارت المسألة من جديد، حين دعا إنجليزي آخر، كان مهندساً للري في مصر، وهو السير "وليم وكلوكس" حين دعا سنة 1926م إلى هجر اللغة العربية، وقام بخطوة عملية، حيث ترجم أجزاء من الإنجيل إلى ما سماه "اللغة المصرية".

وهذه المحاولة وإن كانت قد وجدت معارضة شديدة من الغيورين عن الإسلام الذي لا قوام له إلا بلغة القرآن، إلا أنها بدأت تؤتي أكلها في بعض جوانب الحياة، وعلى وجه التحديد في قطاع الفن والتمثيل، حين اتخذت اللهجة السوقية في المسرح الهزلي،ثم انتقلت إلى المسرح الجدي، حيت تجرأت عليه "فرقة رمسيس" فوجدت مسرحياتها رواجاً وقبولاً عند العوام والبسطاء من الناس.

ثم ظهرت الخيالة "السينما" من بعد فا اتخذت هذه اللهجة، ولم يعد للعربية وجود في هذه الميادين.

على أن أغرب ما كسبته هذه الدعوة التي روج لها الإنجليز وعملاؤهم، هو أنها تسللت متلصصة إلى الحصن الذي قام لحماية اللغة العربية الفصحة المسمى "بمجمع اللغة العربية" فظهرت في مجلته الناطقة باسمه سلسلة من المقالات عن "اللهجة العربية العامية" كتبها عضو من أعضاء هذا المجمع اسمه عيسى اسكندر المعلوف"[1].

---

[1] . انظر العدد الأول من مجلة المجمع، أكتوبر 1934م، ص350-369. والعدد الثالث أكتوبر 1936م، ص349-371. والرابع أكتوبر 1937م، ص294-315.

وليس هذا هو كل ما يدعو إلى العجب من أمر هذا المجمع –في تلك الحقبة– فقد تقدم عضو آخر من أعضائه المبرزين، وهو "عبد العزيز فهمي" في سنة 1943م، باقتراح كتابة العربية بالحروف اللاتينية، وشغل المجمع ببحث اقتراحه ثلاث سنوات.[1]

وعلى أية حال فإن خيوط المؤامرة على اللغة العربية لم تنقطع، ولم يتوقف أصحابها على السعي لتحقيق هذه الغاية حتى يومنا هذا، ولو حاولنا تتبعها لتشعبت بنا الطرق، والمقام لا يسمح بذلك، وما نبهت عليه قليل من كثير، فالغربيون وأتباعهم الذين يخوضون في شؤون المسلمين يريدون أن يقلب العرب المسلمون أوضاعهم رأساً على عقب، وكأن الأمم ترتجل ارتجالاً، فهم يزعمون أن العربية لم تعد تصلح لغة علم ومدنية، وأن العرب يجب أن يغيروا كل شئ في أساليبهم، وأن يكتفي كل قطر باللغة العامية التي اصطلحوا على التخاطب بها، وهذا يتنافى مع السعي لتوحيد الأمة العربية نواة لوحدة إسلامية، تعيد تلك الحضارة الإنسانية التي عاش الجميع في كنفها آمنين مطمئنين، من غير نظر إلى أجناسهم ومعتقداتهم فالأمة تعيش بماضيها، وما هي إلا تتمة لذلك الماضي العريق.

ومن هنا تأتي أهمية الاهتمام باللغة العربية الفصحى، باعتبارها جزءاً من الأمن القومي للأمة؛ لأن كل فكر يستند إلى خصائص اللغة، ولذلك فإن منهج البحث العلمي العربي، إنما يستند إلى خصائص اللغة العربية، ولا يمكن أن يستند إلى خصائص لغة أخرى، فلكل لغة منهجها الفكري القائم على معانيها ومضامينها.

إن الاشتغال بلغة الأمة وآدابها، فضيلة في نفسه، ومادة من مواد حياتها، فلا حياة لأمة ماتت لغتها.[2]

إن ما نشاهده اليوم من محاولات تقوم بها الدول العربية لمحاولة اللحاق بركب الحضارة، أمر جدير بالاهتمام، ولكن الوسائل التي تقوم عليها هذه المحاولات –في رأيي– غير سليمة، إذ أنها تقوم على إيفاد أبنائها لدراسة تلك العلوم بلغات أصحابها، وهذا أمر تحف به كثير من المخاطر،

---

[1] . انظر في جميع ما تقدم، الاتجاهات الوطنية في الأدب الحديث، محمد محمد حسين. 359/2 وما بعد، الطبعة السادسة 1983. مؤسسة الرسالة. بيروت لبنان.

[2] . محمد رشيد رضا، تفسير المنار. المجلد الأول. الناشر دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت ص28.

فإلى جانب افتقاد تلك المجتمعات مبادئ القيم والأخلاق والفضيلة، بالإضافة إلى عدم وجود الرعاية المطلوبة لهؤلاء الشباب من الآباء أو المربين وعلماء الدين، الأمر الذي قد يترتب عليه وقوع البعض في مزالق الرذيلة. هذا إلى جانب وقوع كثير من الفاقد بسبب الإغراءات التي تقدم لهم، خاصة المتفوقين منهم.

والطريقة المثلى أن تنشأ هيئة مستقلة تشرف على ترجمة تلك العلوم ونقلها إلى اللغة العربية، تحت إشراف المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم مثلاً. وبهذا نضمن سلامة شبابنا من الضياع، والاستفادة من مواهبه في بناء صرح هذه الأمة، حتى تنهض من كبوتها، وتعيد مجدها الضائع.

وهذا بالطبع يتطلب الاهتمام باللغة الفصحى وفق منهج علمي دقيق تشرف عليه مجموعة من ذوي الاختصاص في المجال اللغوي والتربوي والتقني. وإعادة النظر في هيكلية التعليم والتربية وبنائها على أسس موضوعية في جميع مراحل التعليم بصورة عامة، بحيث تكون اللغة في صدارة هذه المواد، فهي وسيلة المعرفة الأصيلة ولكن تعلم العربية اليوم يصطدم بثلاث صعوبات كأداء، تتطلب دراستها بعمق ووضع أنجع الحلول لها:

1- عدم توفر المعلم المؤهل لتعليم العربية، وتقديمها بصورة واضحة، يراعى فيها مستوى التلاميذ وأذواقهم ومواهبهم وهذا يتطلب إعداد مدرسين أكفاء، ويمكن أن يتم عن طريق إعداد معاهد متخصصة لتعليم العربية على أحدث الوسائل ويكون الانتساب إليها وفق مواصفات معينة ويخضع لها كل من تكون لديه الرغبة والقدرة لهذا النوع من الدراسة، بعد أن يخضع الجميع لاختبارات تقوم على المواهب والميول والاتجاهات. على أن تتوفر لمثل هذه المعاهد جملة من التقنيات الحديثة، التي من شأنها أن تساعد على استيعاب هذه اللغة وتذوقها، بفهم ما فيها من أساليب بيانية وصور بلاغية، مثل المعامل، والأجهزة المرئية التي ينبغي أن تكون برامجها كلها باللغة الفصحى، بحيث يصبح كل من ينتسب لمثل هذه المعاهد لا يسمع إلا الفصحى ولا يتكلم إلا بالفصحى حتى تصير عنده ملكة تمكنه من فهم ما تستأثر به هذه

اللغة من خصائص، سواء في المفردات، أو التراكيب، أو في القدرة على التعبير عن المعاني واستيفائها، الأمر الذي كان له أكبر الأثر في تغلغلها لكثير من اللغات الأجنبية.

وليس تعلم العربية بالأمر العسير، فقد كان الأعاجم في القرون الأولى يحذقونها في زمن قريب، حتى يزاحموا الخلص من أهلها في بلاغتها، وإن ما يراه أهل هذا العصر عسيراً، لأنهم شغلوا عن اللغة بتلك القوانين والفلسفات التي ألحقت بها. ويؤيد هذه الشهادة ويقويها أن الناس منذ قرن أو أكثر قليلاً لا يكادون يقيمون العربية، ولا يقدر على كتابة مقال سليم من الأخطاء اللغوية إلا نفر قليل منهم. وقد استطاعوا في هذه الفترة القصيرة – رغم ما لقيت العربية في بلادها من حرب الاحتلال الأجنبي الجائر– أن يجيدوها فهماً وكتابة في هذه الفترة القصيرة.

2– ندرة الكتاب الجيد لتدريس هذه اللغة: لا يختلف اثنان في أن الكتاب الجيد ينتج عنه علم جيد في مختلف العلوم والتخصصات، فليس هذه أمر بدعي لتعليم العربية، بل هو أمر عام في كل فرع من فروع المعرفة الإنسانية. ومن هنا تأتي الأهمية في اختيار الكتاب المقرر لتدريس اللغة العربية وتعلمها، والكتاب الجيد هو الذي يسهل عملية تعلم العربية.

إن تعلم أي لغة من اللغات لا يحدث بين يوم وليلة، ومهمة لا تكتمل بين عشية وضحاها، إنها عملية تراكمية على مراحل يكتسب الإنسان في كل منها شيئاً، حتى يصل إلى ما يرجو الوصول إليه من مستويات الأداء المختلفة في ممارسة هذه اللغة.[1]

وهذه المستويات تمثل مراحل التعليم المعروفة: ابتدائي–متوسط–متقدم والفرق بين هذه المستويات الثلاث يبدأ في مستوى الأداء اللغوي: إن المستوى الابتدائي يعبر عن تنمية المهارات الأساسية للغة عند التلميذ، وتمكينه من أصوات اللغة وتراكيبها، والمستوى المتوسط يعبر عن مرحلة تثبيت هذه المهارات، وتوسيع نطاقها، وزيادة الثروة اللغوية عند الطالب.

[1] . رشدي أحمد طعيمة، تعليم العربية لغير الناطقين بها مناهجه وأساليبه. منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ، الرباط

أما المستوى المتقدم فيعبر عن مرحلة الانطلاق في الاستخدام اللغوي قراءة وكتابة وتعبيراً وفهماً.

على أن يركز في هذه المراحل الثلاث على التطبيق العملي بالدرجة الأولى، عن طريق اختيار نصوص مشوقة وهادفة، فبالقراءة وحدها يمكن تقويم ألسنة المتعلمين، ومن ثم يصلون إلى مرحلة الكتابة الصحيحة، وفق ضوابط اللغة وقواعدها التي لا ينبغي أن ينظر إليها على أنها غاية في حد ذاتها، وأن يستوعب الطالب أكبر قدر من هذه القواعد، وأن يلم بكل شاردة وواردة منها. إن ما يلزم المتعلم ليس هو كثر الكم المقدم من النحو، بقدر ما هو حسن التنظيم وطريقة العرض. إن من أمثل الأساليب لتعلم النحو يتمثل في عرض نماذج من الحديث السليم الجيد الأداء، بما يقص عليهم من حكايات ، وما يقرأ منه من نصوص عربية جيدة، حتى يألفوا التراكيب الصحيحة، مما يساعدهم على فهمها وإعرابها إعراباً صحيحاً.

إن ما نراه في كتب مناهج اللغة في مدارسنا تقوم في مجملها على وضع نصوص مصطنعة، أو أمثلة مجتثة، تهدف إلى استخراج القاعدة بصورة جامدة، فإذا أضيف لهذه الطريقة العقيمة عدم قدرة المدرس على تبسيط القاعدة وتقريبها إلى أذهان التلاميذ، فإن ذلك لا يؤدي إلى نفور الطلاب من هذه المادة فحسب، ولكنه يؤدي إلى أن يصبح إتقان اللغة العربية عندهم غاية لا تدرك.

3- ضعف وسائل الإيضاح وندرتها:

إن استخدام الوسائل المعينة أمر لازم لتعليم اللغة خاصة في المراحل الأولى، إذ من المعروف أن الوسائل التعليمية تنقل إلى الطالب المعني بكل يسر وسهولة، وترسخه في ذهنه، وتجعله قادراً على معرفة دلالة الألفاظ على معانيها.

إن الاهتمام بالوسائل التعليمية وخاصة في مرحلة الطفولة المبكرة من شأنه أن يكسب الأطفال منذ نعومة أظافرهم القدرة على استعمال اللغة الفصحى، لأنهم يتعلمون اللغة في هذه السن بطريقة لا شعورية، فهي تتم عن غير قصد من الإنسان، لكنها تنمي عنده المهارات اللغوية، وهو وإن كان غير واع بهذه العملية غير الشعورية، فهو واع بأنه يستخدم اللغة عند

الاتصال، وهذا يشبه إلى حد كبير عملية تنمية القدرة لذى الأطفال عند تعلمهم اللغة من المحيطين بهم، فالطفل كما نعلم لا يشغل نفسه بفهم القاعدة النحوية عندما يستمع إلى جملة من أبيه أو أمه، ولا يقف برهة ليحفظ بعض الكلمات، ليرتبها بعد ذلك في تراكيب يعبر بها عما يريد.

ولعل الاستعانة بوسائل الإعلام المختلفة: المكتوبة منها، أو المسموعة، أو المشاهدة في تنمية الوعي بقواعد اللغة ومعرفتها، والقدرة على التحدث بها، تساعد الكبار على تعلم اللغة، وهو ما يسمى بالتعليم الرسمي أو التعليم الصريح، وبالتالي فإن وسائل الإعلام عندما تسخر لخدمة هذه القضية، فإنها تعطي الفرد فرصة أكبر وبشكل مستمر لاستيعاب اللغة، وبذلك يمتص تراكيب اللغة، ويستوعب مفاهيمها، وينغمس في ثقافة الناطقين بهذه اللغة فيدرك بما لديه من حس لغوي دلالات كل كلمة، وتبني عنده السليقة اللغوية التي تيسر له استعمال اللغة بشكل تلقائي غير مقصود.

إن الاعتناء بالعربية من أهم المشاريع الإستراتيجية فهي التي تحقق للأمة استقلاليتها وكيانها وهويتها، ولا أدل على ذلك من الموقف الذي اتخذه أعداء هذه الأمة من اللغة العربية، فالمستشرقون، وأهل التغريب، ومن خلفهم الصليبيون الجدد، والصهيونية العالمية، يخططون للقضاء على هذه اللغة، باعتبارها تجمع العرب إلى وحدة الأمة والجماعة، وتربط المسلمين إلى وحدة الفكر والثقافة.

ومن هنا لابد من تكاثف المربين والمشرفين على التعليم، ورجال الإعلام والفكر والثقافة، وبذل قصارى جهدهم لمعالجة أسباب تدني هذه اللغة –عاماً بعد عام – بإخلاص ونشاط ومثابرة وصبر، وذلك بوضع المصطلحات العلمية، وتبسيط قواعد الكتابة، والإعراب والصرف والنحو، وتبسيط الكثير من تعليلات القواعد الصرفية والنحوية.

وبينما نجح اليهود في أحياء لغتهم العبرية الميتة –إذا ما قورنت باللغة العربية– واتخاذها لغة للأدب والحياة عندهم، نجد– بعض المفتونين من العرب ينادون بأن اللغة العربية الفصحى لغة ميتة !!!

والحمد لله أولا وآخراً ...